فلسفة الجمال عند أفلوطين

د. إفطيمة الهادي داعوب
قسم الفلسفة – كلية الآداب
جامعة الزاوية

مقدمة:

ولِد أفلوطين في مصر، أو في مصر الوسطى (أسيوط اليوم) من أبويين رومانيين في أواسط العقد الأول من القرن الثالث بعد الميلاد، وهو العصر "المشحون بالقلق والاضطراب"[1] لأنه كان "عصر انتهاء الحضارة القديمة، وولادة حضارة جديدة تزدحم فيها ثقافات شرقية قديمة شديدة التنوع، بالإضافة إلى الثقافة الهيللينية التي صارت تدعى الهيلنستية عندما غزت المشرق وامتزجت بثقافاته بعد سيطرة الاسكندر المقدوني (356–323 ق.م) عليه وتأسيسه مدينة الإسكندرية"[2].

ويستفاد من السيرة التي ألفها فرفور يوس الصوري[3] (توفى 310 ب.م) أشهر تلاميذ أفلوطين ومرافقيه، أن أستاذه كان "قوى الحجة شديدة الإقناع، متواضعاً يشع وجهه لطفاً وإيناساً"[4] وفي صفاء نفسه، كان يسعى دوماً وراء الهدف الإلهي الذي كان يحثه بكل قوته، فراح يكافح بجهد ليحرر نفسه ويرتفع عن أهواج هذه الحياة الملطخة بالدم، كما يقول فرفور يوس، "لذا ظهر له ذلك الإله الذي لا شكل له ولا صورة، بل يترّبع على عرشه فوق عالم العقل والفلك العقلي"[5] ويشهد فرفور يوس أنه إبّان الفترة التي قضاها برفقته بلغ أفلوطين تلك الحال من الاتحاد التي كان يصبو إليها كل حياته أربع مرّات. ويروي فرفور يوس كلماته الأخيرة الموجهة إلى صديقه الحميم يوسطو خيوس Eustochius، قال أفلوطين بعد أن تأخر هذا الصديق فيَّ القدوم وهو على سرير الموت : "لقد انتظرتك طويلاً، وإني ساعٍ لرد العنصر الإلهي فَّي إلى العنصر الإلهي في الكون"[6].

وعلى الرغم من أننا نلاحظ في السنوات الأخيرة ما يشبه حركة البعث لفلسفة أفلوطين كما تتجلى في نشر أعماله باليونانية نشراً دقيقاً محققاً، وفي ترجمتها إلى معظم اللغات الأوربية – إلا أن أفلوطين لم يقدر له أبداً أن يكون من الفلاسفة الذين يقبل الناس على قراءتهم ومناقشة آرائهم والتحمس لأفكارهم، ومع ذلك فيكاد كل مثقف أن يعرف شيئاً عنه أو يردد بعض كلماته المعروفة الواحد الفيض أو الاشعاع، الفناء والوجد والانجذاب ... الخ.

كل هذا معروف مشهور، يستطيع القارئ إذا شاء أن يجده في أي كتاب من كتب تاريخ الفلسفة اليونانية، ولكن ما نريد أن نتحدث عنه اليوم شيء آخر، هو الجمال، فما هو الجمال إذن عند أفلوطين؟ وما هي علاقة الجمال بالخير المحض؟ وما هو الفرق بين الجمال الفني والجمال الطبيعي؟ وأن الإجابة على هذه الأسئلة وغيرها تستدعي تحليلاً داخلياً لفلسفة الجمال عند أفلوطين، من خلال الموضوعات التالية:

1. ما هو الجمال.
2. علاقة الجمال بالخير.
3. مقارنة بين أفلوطين وأفلاطون.
4. الخاتمة.

1- ما الجمال؟

بعد أن عرضنا لإسهامات أساطير الفلسفة اليونانية(*) هم سقراط وأفلاطون وأرسطو في مجال الجماليات والفنون نعرض لموقف "أفلوطين" من هذا الموضوع، وأفلوطين هو زعيم المدرسة الأفلاطونية الجديدة بالإسكندرية، ولقد انعكست نظرية أفلاطون بجلاء في فلسفة أفلوطين فهو يقول كأفلاطون بوجود عالمين هما العالم الحقيقي العقلي، والعالم الحسي، والعالم الحسي يفيض عن العالم العقلي، وهذا الأخير يفيض عن الله أو الخير المحض.

وتتميز فلسفة أفلوطين العامة بالرومانسية، وهي تقوم من الناحية الذاتية على أساس أن الغاية من الفلسفة هي الإرشاد إلى الطريق الذي به يصل الإنسان إلى إفناء الذات في الوحدة الإلهية وإلى إيجاد التجربة الروحية التي يستطيع الإنسان بواسطتها أن يتحد بالواحد، والمزاج المكوّن لهذه التجربة هو في الأصل الوجد، أما من الناحية الموضوعية فتقوم هذه الفلسفة على أساس إنكار كل قيمة للعالم الخارجي، فكل ما هو متناه وكل موجود ما خلا الله متناه زائل، وبالتالي لا قيمة له، فلا داعي في نظر أفلوطين حتى إلى العناية به أو إثبات بطلانه، ومن هاتين الناحيتين: الناحية الذاتية والناحية الموضوعية، سنجد أن طابع الفلسفة عند أفلوطين سيمتاز أولاً بأن فكرة الالوهية هي التي تشغل الجزء الأكبر منه إنْ لم يكن كله، وثانياً بأنها فلسفة تقوم على الوجدان والتجربة الذوقية الصوفية والكشف، ولهذا لا نجد أفلوطين يعني بنظرية المعرفة، بل

يفترض، ابتداءاً الموقف الشكي، فينكر أن تكون للمعرفة العقلية أية قيمة، وإنما القيمة كلها في التجربة الصوفية وفي الكشف والذوق[7].

ولما كان العمود الرئيسي الذي يقوم عليه بناء فلسفته هو الله أو العالم المعقول، ومن العالم المعقول ينتقل الإنسان إلى العالم المحسوس، ومن هذا الأخير يحاول أن يرتفع ثانياً إلى الوحدة الأولى، فإننا سنجد أن فلسفته تنقسم في الواقع إلى ثلاثة أجزاء رئيسية : الأولى العالم المعقول، والثاني عالم المحسوسات، والثالث العود من عالم المحسوسات إلى العالم المعقول[8].

يرى أفلوطين أن الحب الا يستيقظ ولا ينمو: الا عند مواجهة الإنسان للجمال فما هو الجمال إذاً؟

ينتقد أفلوطين في تاسوعته الأولى[9] القائلين بأن الجمال هو التناسق والانسجام بين أجزاء الشيء، فإذا صح رأيهم تبطل بساطة الكائن الجميل ليصير مركباً، ذاك أن الجمال الحق هو، كما سنرى، جمال الكائن الروحاني البسيط، ثم إذا كان المجموع جميلاً من جراء التناسق، فالجزء لا يكون جميلاً في ذاته، علماً بأن بعض الموجودات لا ينطبق عليها مبدأ التناسق هذا بالرغم من أنها جميلة، كالأشعة الشمسية البسيطة وغير المركبة من أجزاء، وكالبرق، والصوت، والذهب، ووجه الإنسان الذي يكون جميلاً أحياناً وبشعاً أحياناً أخرى بدون تبدل في تقاسيمه، فضلاً عن العقل، والقوانين، والمواعظ، والأفعال والعلم، والفضيلة، وحتى بعض الأفكار الشريرة، وهذا يعني أن الجمال لا يكون في تناسق أجزاء الشيء، بل في الفكرة التي يعبر عنها[10]، أي بإيحائه الباطن غير المتظهر في الحس[11]، والذي ندعوه لدى الإنسان نفساً، هكذا يكون الوجه جميلاً عند ما يبرز منه جمال النفس[12]، وتوحي هذه النفس بالجمال على قدر بروز صورة الخير الإلهي فيها: "إن أجمل التماثيل هي الأكثر حياة، حتى ولو كانت تقاسيم غيرها أصح منها، فالرجل البشع والحي هو أجمل من تمثال رجل جميل، لأنه مرغوب فيه

أكثر، وهو مرغوب أكثر لأن له نفساً، وله نفس أكثر امتلاكاً لصورة الخير، وهو يمتلكها لأن نور الخير جعل ألوانه تبرق...."[13].

ويعرف أفلوطين الجمال بأنه موضوع محبة النفس لأنه من طبيعتها وهو ينتمي إلى عالم الحقائق العقلية، فهو بطبيعته أقرب إلى النفس منه إلى طبيعة المادة، ولذلك فيجب ترتاح إليه وتحبه في حين يكون القبيح أقرب إلى طبيعة المادة يقول: "عندما تصادف النفس ما هو جميل تندفع نحوه لأنها تتعرف عليه إذ إنه من طبيعة مشابهة لطبيعتها، اما حين تصادف القبيح فهي تصدف عنه وتنكمش على نفسها لأنه مغاير لطبيعتها"[14].

ويشير أفلوطين إلى نوع من الجمال ندعوه جمال القبح، هو الجمال الذي يكون موضوعه قبيحاً في الطبيعة أو ناقصاً فيسبغ عليه الفنان من روحه ما يتممه ويحسنه فيبدو في انتاجه الفني جميلاً، لذلك يرى أفلوطين أن كل ما تشكل بحسب فكرة معقولة صار أجمل، فالجميل هو المصور والقبيح هو ما يخلو من الصور المعقولة، والبرهان على ذلك أننا لو قارنا بين حجرين أحدهما قد نحت على صورة معينة كأن تكون صورة إله او إنسان وترك الآخر بغير تشكيل أو صورة معقولة فإننا نلاحظ أن الأول سوف يتفوق على الآخر في القيمة الجمالية[15].

ويتساءل أفلوطين عن سر جمال هذا الحيوان وتلك المرأة الخ .... فيجيب بأن جمال الكائنات يعود إلى صورتها وليس إلى مادتها الجسمية، ويستدل على ذلك من كون حجم الجسم لا يؤثر في جمال الشيء (فلو كان حسن الصورة إنما يكون من قبل الجثة التي تحمل الصورة لكانت الصورة كلما عظمت الجثة التي تحملها أكثر حسناً وتشويقاً للناظرين إليها، منها إذا كانت في جثة صغيرة)[16]..

ولا يرجع الجمال إلى الصورة الحسنة فقط، وإنما يرجع إلى أنواع الصور الأخرى فثمة صور تعليمية، وهي عبارة عن خطوط وأشكال وألوان، وثمة صور نفسية مثل الحلم والوقار وغيرها، وهذه الصورة الأخيرة أجمل في نظر أفلوطين من الصور الجسمية: انك ربما رأيت المرء حليماً وقوراً فيعجبك حسنه من هذه الجهة فإذا نظرت إلى وجهه رأيته قبيحاً سمجاً فتدع النظر إلى صورته الظاهرة وتنظر إلى صورته الباطنية فتعجب منها.... وإنما الحسن هو الكائن في باطن الشيء لا في ظاهره....[17].

وبناء على ذلك لا يرجع الجمال إلى المادة بل يرجع دائماً إلى الصورة وعلى الفنان إنْ أراد بلوغ الكمال في عمله ألا ينقل عن الطبيعة بل عليه أن يستمد من عالم المعقولات الصورة الكاملة التي تتشكل بها الطبيعة – يقول إن فيدياس المثال لم يصور الإله زيوس بحسب ما قد أبصر بل كما لو أراد الإله نفسه أن يكون عليه لو أنه بدا للناس.

فالجمال إن وجد في الطبيعة أو وجد في الفن فإنما مصدره هو دائماً الصورة التي تنسب إلى العالم العقلي لأن الطبيعة تحاكي النماذج العقلية أو المثل على حد قول أفلاطون وعلى الإنسان إذا ما أراد بلوغ الكمال في عمله أن يطهر نفسه حتى تكتشف هذه المثل العقلية التي هي موجودة بباطنه والتي تصله بالعالم الإلهي الخالد، يقول:

يوجد الجمال في الفن أكثر مما يوجد في الفنان وهو يوجد في الفنان أكثر مما يوجد في أعماله الفنية ذلك لأنه يكون دائماً في العلة أعظم مما هو في المعلول، ولذلك أيضاً كانت الآلهة أعظم وأجل مناً لأن العقل فيها أعظم مما هو فينا[18].

والفنان الذي يتمتع بروح شفافة يستطيع أن يدرك الجمال في أعلى درجاته، أو بعبارة أخرى أن يدرك الجمال المطلق، ذلك الجمال الذي يفوق جمال الأشياء بمراحل متباينة البعد ولكنه يفوقها جميعاً على كل حال، فإذا نقل الفنان شيئاً من هذه الأشياء كان عمله الأساسي هو

أن يقرب به ما أمكن من ذلك الجمال المطلق الذي أدركه من قبل بروحه، فهو إذن يترقى به في مدارج الجمال باكتناهه جوهر هذا الشيء الأصيل والذي لابد أن يكون جميلاً .... وهذا هو السبب في أن الفنان ينبغي عليه ألا ينقل الطبيعة نقلاً رديئاً، بل يحاول أن يصل بنظره الثاقب الذي صدرت عنه كل الحياة، ويصحح النقص في الأشياء المحسوسة بحسه[19]، فإذا كان الشيء في وجوده المستقل يتمتع بدرجة ما من الجمال فإنه يترقى في مدارج الجمال إذا ظهر في عمل فني، والروح الجميلة هي التي تكشف عن الأشياء التي تدخل في ميدان الإشعاعات الصادرة عن الجمال المطلق، ومحك ذلك هو موافقة هذه الأشياء لها.

وقد فسر أفلوطين في الإنياذه الجمال الفني بأن فرق بينه وبين جمال الطبيعة، فرأى أن الحجر الذي يتناوله الفنان يبدو جميلاً بجانب الذي لم تمسه يد فنان، فالجمال: إذن ليس في الحجر وإلا فالحجران من أصل واحد، ولكنه في تلك الخاصية التى أضافها الفن إلى الحجر، وهذه الخاصية كانت في نفس الفنان قبل أن تخرج في الحجر، وهذا الجمال الذي سبق أن أدركه بخياله كان أعظم منه في الحجر[20]، ومن ثم فالعمل الفني ليس مجرد تقليد للعالم المرئي ولكنه يصعد بنا إلى المبادئ الأولى التي قامت عليها الطبيعة.

2- علاقة الجمال بالخير المحض:

يحيا الإنسان بنظر أفلوطين في محيط جميل، لأن العالم صادر عن علة لا تبدع إلا ما يشبهها، ولأنه موحد في تجمع جميل يكفي ذاته بذاته[21]، فضلاً عن الجمال الناتج من احتواء الأحد له[22]، الأمر الذي يجعل الأحد مصدراً لكل الجمالات، الفطرية منها والمكتسبة[23]، ويولد في نفس الإنسان نزعة التفكير بمصدر الجمال عند رؤيته الأشياء الجميلة[24]، وإذا كررنا أن الجمال الفردي في عالم الزمان هو انعكاس للجمال المثالي، فهمنا لماذا يكون الفن بنظر أفلوطين، استحداثاً لكائنات مشابهة لمثلها، لا تقليداً للطبيعة[25]، هكذا يرفعنا الجمال الجزئي فوق

الأشياء فيستفزنا للتأمل بالجمال العلوى[26]، ويستثير فينا الرغبة للاندفاع نحو الخير الأسمى، متجاوزين نواقصنا، متحلين بالكمالات الروحية، كالأنسجام والجمال والحياة البهية الواضحة، والتعقل، متنكرين للذة التي تشكل نقصاً كيانياً فينا[27].

ويكفي هنا أن نقرأ معاً هذه القطعة من رسالته الثانية المتأخرة التي يقف فيها موقفاً حاسماً من مشاهدة هذا العالم الجميل متذوقاً مباهج الجمال والحسن لرؤية الأحد الحقة[28].

"وكذلك فإن احتقار العالم والآلهة الدين فيه"

"والأشياء الجميلة الأخرى ليس هو"

"الطريق إلى الخير ... فكيف لأمريء"

"أن يكون على هذا الكسل في التفكير وألا يؤثر فيه"

"شيء، حين يرى كل هذا الجمال في العالم المحسوس"

"وكل هذا التجانس والتوافق المذهل"

"والمنظر المتآلف الذي تتجه الكواكب على"

"الرغم من بعدها، إلا بحس بشيء يختلج في فؤاده"

"وبالرهبة تستولي عليه وهو يرى كيف ينشأ البديع"

"من البديع: إنه عنئذ لم يفهم هذا العالم ولا رأى"

"العالم الأخر ... أما إذا زعموا أنهم لا يتأثرون ولا"

"يميزون بين الأجساد"

"القبيحة أو الأجساد الجميلة التي يرونها، فأنهم لا"

"يستطيعون كذلك أن يميزوا بين الأعمال القبيحة"

"والأفعال الجميلة، ولا أن يتبينوا العلوم"

"الجميله، ولا أن يبلغوا الرؤية، ولا الله"

فالطريق إذن إلى مشاهدة الواحد يبدأ من مشاهدة هذا العالم الجميل ولا يتسنى للإنسان أن يرى الرؤية الحقة حتى يخوض بكليته في هذه الأرض، ويملأ عينيه من هذا الواقع المحسوس.

ويميل أفلوطين على العموم إلى دمج مثال الجمال بسائر المثل، فيتحدث عن ذاك الجمال الكلي الذي يشمل عالم المعقولات، فيجعله وحدة جمالية تتجاوز التعددية والفردية وتتوسط المدى بين الله وعالمنا[29]، فحيث يكون العالم المعقول يكون الجمال[30]، ليشكل هذا العالم مرحلة علوية من مراحل مقاربتنا لله، وهل أن الله هو الجمال الأعلى؟

لا يتضح رأي قاطع لأفلوطين بهذا الشأن، فهو يقرر من جهة أن الأحد يهب الجمال كل الكائنات باقياً في ذاته الجمال الأول[31]، جمالاً أعلى من الجمال[32]، وأنه مبدأ أول لجمال عالم المثل[33]، ويقرر من جهة ثانية أن الجمال ليس الله، بل هو بعده ويحتاج إلى الله، ولا يحتاج الله إليه، ليكون في درجة مباشرة بحده، فنسعى إليه في توقنا إلى الاتحاد بالله كمن يرغب في استمالة الشخص الآتي مباشرة بعد الملك معتقداً أنه الملك وهو ليس كذلك [34] وهذا ما يستدعي تجاوز الجمال عند التأمل بالأحد، لأن الجمال لاحق له كنور النهار الصادر بكليته عن الشمس[35]. الأمر الذي يخولنا الاعتقاد بأن أفلوطين لم يرفع الله فوق الجمال، إلا أنه شاء تنزيهه عن الصفات كي ينقذ وحدانيته وتعالى ذاته على الإدراك، أو كأنه شاء أن يرفع الله فوق الجمال المثالي الذي نستطيع إدراكه بالتأمل، فدعاه مبدأ الجمال.

والجميل عند أفلوطين والمدرسة الافلاطونية الحديثة – يشير إلى الواحد المطلق الخير الذي تصدر عنه الصورة المشعة، ولا شك انه من الواضح تأثر هذه النظرية بفلسفة أفلاطون في الجمال المفرقة في محاوراته "كالمائدة" و"فيدروس" و"هيبياس". وقد تكون أكثر من مصادفة أن

ينشر الجزء الثالث من "التاسوعات" (وفيه يتكلم أفلوطين عن الجمال والحب) مع المائدة في مجلد واحد، وإذا كان أفلاطون قد وحد بين الجمال والخير فقد تأثر به أفلوطين، "فعنده كذلك أن الجميل هو الخير، والخير في هذا الرأي كامن خلف الجميل وهو مصدره ومبدؤه كما هو مصدر كل شيء ومبدؤه"[36] فالواحد المطلق خير قبل كل شيء وهو جميل لأنه خير فالخير هو المبدأ الأول الذي يصدر عنه الجمال.

ولما كان الوجود الحق هو الخير وهو أيضاً غاية كل الكائنات فإنه يكون أيضاً محور عشق الكائنات، يقول:

فإن أمكن أحد أن يرى هذا الوجود الإلهي فأي حب سوف يغمره، وأي رغبة سوف تتملكه؟ اننا نتطلع إليه بدون أن نراه، فإذا عايناه فسوف ننبهر بجماله وسوف يمتلئ الرائ بالعجب والبهجة بل سوف يتملكه الذهول ويمتلئ حباً حقيقياً ويسخر من كل أنواع الحب الأخرى وينأى عن كل ما كان يظنه فيما مضى جميلاً وسوف يكون حاله حال أولئك الذين سبق لهم رؤية الصور الروحانية والإلهية فأصبحوا لا يأبهون بأي جمال من جمال الأجسام، فكيف إذن إن رأينا الجمال في ذاته: الجمال الخالص النقي غير المدنس بالمادة والجسد وهو الجمال الذي لا يسكن الأرض ولا السماء بل يوجد حيث يكون النقاء. إنه الجمال المكتفي بذاته الذي يفيض على محبيه جمالاً ويملأهم بالحب، وتلك هي الغاية القصوى التي نسعى إليها النفوس وهي الرغبة التي تستحوذ على كل جهودنا حتى نبلغ هذا التأمل الذي يغمرنا بالسعادة[37].

وإذا كان للجمال هذه الطبيعة "فإن الوسيلة إلى إدراكه هي الروح أما الحواس فإنما لا تدرك سوى انعكاسات هي ظلال للجمال، وسوى إيحاءات للحقيقة وهذه الأداة يجب أن تهذب، فيجب أن تصقل بالتفكير الراقي وبحياة الألم، وفي الانياده "يتساءل أفلوطين كيف يمكن رؤية جمال النفس الخيرة؟ (ويجيب): عد إلى نفسك وأنظر، فإذا لم تر الجمال فيك فأصنع ما يصنعه

المثال بتمثال ينبغي أن يكون جميلاً، فهو يزيل جزءاً ويهذب ويجفف حتى يستخلص من الرخام خطوطاً جميلة، فأزل مثله الزائدة وعدل المنحرف وأجل المعتم ليصبح وضيئاً، ولا تكف عن نحت تمثالك حتى يستعلن نور الفضيلة الرباني، وحتى ترى الفضيلة مستقرة على العرش المقدس"[38]. وهي نزعة صوفية واضحة في فهم الجمال وإدراكه إذ أنه بهذا الوصف الذي وصف به أفلوطين شوق النفس وتطلعها إلى جمال العالم الروحاني قرب بين تجربة التذوق الجمالي وتجربة التأمل الصوفي بل جعل من تجربة التأمل الصوفي غاية التجربة الجمالية، ذلك لأن الاستجابة الجمالية للفن ليست غاية في حد ذاتها بل تستمد قيمتها من كونها دالة على الحقيقة العقلية الروحانية شأنها شأن الاستجابة لجمال الكون والطبيعة باعتبارهما من آثار المبدأ الإلهي المقدس والعلة الأولى التي تلهم نفوس الصوفية بالشوق الدائم والتطلع إلى معاينة هذا المبدأ والاقتراب منه[39]".

ومما لا شك فيه أن تمسك أفلوطين بهذا المضمون الروحاني إنما يعكس تأثره بالأسرار والأديان الشرقية التي كانت تسود مدينة الإسكندرية في القرن الثالث الميلاد، وتعكس، انصراف الفيلسوف عن الحياة المادية التي زاد الإقبال عليها في العصر الروماني.

3- مقارنة بين أفلاطون وأفلوطين:

وعلى الرغم من تأثر أفلوطين الشديد بفلسفة الجمال الافلاطونية إلا أن هناك بعض الاختلافات بينهما سنوضحهما فيما يلي:

1- يكرر أفلوطين ما ذهب إليه أفلاطون من أن مصدر الجمال العقلي والنفسي هو الفاعل الأول أو الخير المحض، وعلى الإنسان أن يتمثل ذلك الجمال الموجود الأول الذي في

العقل والنفس عند ما ينتج الفن، ويصدف عن الجمال الجسمي الموجود في الكائنات المادية الحسية[40].

ويأسف أفلوطين لأن معظم الناس يشتاقون إلى الجمال الحسي الظاهر ويصدّفون عن الجمال النفسي الباطني لأن الجهل غلب عليهم.

2- من الواضح أن أفلوطين قد أستقى مبادئ فلسفته الجمالية من فلسفة أفلاطون حين أخذ يبحث عن الجمال في العالم العقلي المثالي وطالب الفن أن يحاكي الأصل لا الظلال ونأى بالفن عن كل الاتجاهات الحسية والنزعات الواقعية، غير أن تصوف أفلوطين وكراهيته للعالم المادي قد انتهى به لنزعة رمزية في الفن تتخلص في تجاوز المحسوس إلى ما وراءه من مبادئ العالم العقلي، بحيث أن كل ما يخلو من آثار العقل أو العالم الروحاني لا يكون موجوداً ولا جميلاً لأن الوجود كله إنما يدين بوجوده دائماً لقوانين عالم العقل.

وبناءً على هذه الرمزية الميتافيزيقية ينتفي القبح من العالم المحسوس الظاهري لأن الموجودات كلها إنما توجد بفضل مشاركتنا في الحقيقة العقلية التي يتحد فيها الوجود بالخير والجمال[41].

3- وإذا كان أفلاطون قد وحد بين الجمال والخير فقد تأثر أفلوطين أيضاً بذلك ... فعنده كذلك أن الجميل هو الخير، والخير هو المبدأ الأول الذي يصدر عنه الجمال.

4- يميز أفلوطين درجات في الجمال على نحو ما فعل أفلاطون، أعلاها الجمال الموجود في العالم العقلي أو المثالي، وأدناها الجمال الموجود في الطبيعة، أما الجمال الفني أو الجمال الصناعي على حد تعبيره فهو دون الجمال الطبيعي، وينطلق أفلوطين في ترتيب درجات الجمال هذه من مبدأ يلخص بأن كل فاعل أفضل من المفعول، وكل مثال أفضل من الممثول المستفاد منه، وكل صورة حسنة أو جماعية إنما تنحدر من صورة سابقة عليها وأسمى منها،

فالصورة الأولى العقلية أفضل من الصورة الطبيعية، والصورة الطبيعية أفضل من الصورة الفنية، إن الفن يتشبه بالطبيعة، والطبيعة تتشبه بالعقلي[42].

5- يرى أفلوطين أن عاطفة الحب شرط ضروري لاستشعار الخفايا الجمالية في الوجود[43]. فإذا كان الجمال هو "الغرض" الذي يجذبنا إلى الأحد، فالحب هو المحرك الذي يدفعنا نحوه بواسطة الانفعال الجمالي، وإذا كانت قدرة التسامي المعرفي كامنة في العقل، فالطاقة الدينامية التي تحرك قواعد هذا العقل هي الجمال، وهذا ما يجعل الجمال البذرة الصوفية التي يبرعم العقل فيها، كأن تكون مهمة الجدل إيضاح ما سبق للإعجاب الجمالي أن حبك به[44]، فيكون وراء تساميا العقلي الفلسفي تسام عاطفي فني لا تحاك انطلاقات العقل إلا من خيوطه. وعندما يبلغ التسامي ذروته يشعر الإنسان أنه صار والجمال واحداً، صار الجمال الكلي[45].

لكن هذا التسامي لا يتم إلا بتجرد النفس من قيود الجسد، فتسترد طبيعتها الأصلية، على غرار ما يصفو الذهب إذا عاد إلى ما كان عليه في أصله[46]، عندئذ تصير عقلاً، وذات جمال خاص بها غير دخيل عليها، وهو ما يعنيها على التشبه بالله[47]، فتصبح جديرة بالاتحاد.

والآن ندرك، أن بصمات أفلاطون في "فيدون Phidon" والوليمة، واضحة لدى أفلوطين، فالجمال عند أفلاطون[48] يولد الحب ليكون هذا الحب الطريق إليه، وهو مشاركة بين الكائن المنظور ومثال الجمال، درجاته تصاعدية، يظهر لدى الإنسان في عقله وأخلاقه إذا أحسن التحرر من الجسد والشهوات، ويشكل غاية الموجودات إذ يتحرك نحوه الوجود كله، لأن الخير الأسمى هو الجمال بالذات.

6- نعثر لدى أفلوطين على بعض من هذه الأفكار، فضلاً عن القرابة بينهما في تأكيد أهمية دور الجمال في التسامي البشري، لكننا نعثر أيضاً على بعض الفوارق كاعتقاد أفلوطين بالأصول الفطرية للحب عند الإنسان وباقتصار دور الجمال على إيقاظه، وكقوله بفعالية الحافز

الجمالي في خلفيات العقل عند التسامي، فضلاً عن أن الله يتجاوز الجمال، بالرغم، من كونه مبدأ له، مستبيناً لنا كأنه الجمال المطلق في ذاته، وإن ذروة التسامي الإنساني تتحول إلى وجد صوفي ليعتقد الحكيم أنه اتحذ بالجمال المطلق.

7- صحيح أن أفلوطين جمع أهم الأفكار التي تضمنتها النظرية الجمالية عند أفلاطون وأرسطو، وكوّن منها مركباً أعلى، ولكنه في الوقت ذاته قد صبغ هذا المرُكب بصيغة صوفية، والصوفية الجمالية هي التي ترى في التجربة الجمالية حالات النفس وهي تشبه النشوة الصوفية بكل معارفها البديهية التي يعجز الإنسان عن التعبير عنها[49].

8- كان أفلاطون يضع الالهام الفني والشعري كنقيض للتأمل، ولكن أفلوطين يجمع بينهما، ويضيف فكرة الصوفية فهو على يقين، كما قال لتلميذه – بورفير – أن المرء يمكن أن يكون شاعراً وفيلسوفاً وصوفياً في آن واحد فالفنان لا يحاكي المحسوسات فقط ولكنه يتخيل الأفكار التي تعكسها تلك الأشياء ولكنه عليه أن يبدأ بالتأمل الصوفي ليصل إلى أعلى درجة يمكن أن تسمو إليها الروح وتدخل في اتحاد مع الله[50].

9- ولقد اتفق أفلوطين مع أفلاطون وأرسطو في الاهتمام بالقيمة الاخلاقية للفن، ولكنه اختلف عنهما في أنه لم يجعل هذه القيمة مبنية على أساس سياسي، وإنما على أساس ديني[51].

10- إن كل هذه الاختلافات لا تمنعنا من الاعتقاد بأن محاورات أفلاطون شكلت أهم منهل استقى منه افلوطين منطلقات نظرته إلى الجمال، وقد لا تكون هذه الفوارق إلا نتيجة فارق أساسي واحد هو استغراق أفلوطين في التركيز على خلفيات الإنسان العاطفية والفطرية، وهو ما جعله يرفع الحب والجمال إلى مستوى الوجد الصوفي، حتى كاد كل منهما أن يشكل حافزاً ونتيجة معاً، أي وسيلة للتسامي وغاية له[52].

وأخيراً، فإن فلسفة أفلوطين الجمالية، في إعلائها من شأن العمل الفني على هذا النحو، تمثل القمة العليا للتفكير الجمالي عند اليونانيين، ولكنها في الوقت ذاته، تنطوي على عنصر يقضي على الطابع العقلي المتميز للفكر اليوناني، وذلك لأن أفلوطين يرد كل شيء إلى المبدأ الإلهي، ويجعل من الفن تأملاً لصورة الإلوهية كما تنطبع على عالم الزمان والمكان، ولولا هذا الاتصال الدائم بالمبدأ الإلهي لما كان في وسعنا أن نرى الجمال في شيء[53].

4- الخاتمة:

مما تقدم، توصل الباحث إلى النتائج التالية:

1- على أساس هذه الجمالية الصوفية فسر أفلوطين جمال المحسوسات، ما كان منه في متناول البصر أو السمع بأن لا يرجع إلى تناسب أجزائها، كما يقول بعض معاصرية أمثال الرواقيين وشيشرون، إذ لو كان التناسب هو سبب الجمال فإنه سوف يقتصر على الأشياء المركبة وينعدم من الأشياء البسيطة، وإن جاز هذا الرأي فسوف يكون الكل هو الجميل وتكون الأجزاء قبيحة وهذا يفضي إلى التناقض إذ كيف يصح أن يتولد الجمال من اجتماع أجزاء قبيحة، ومن جهة أخرى، فإن التناسب، والمقاييس إنما هي أفكار تتعلق بالكم ومن ثم لا يجوز أن تطبق على الحقائق الروحانية، كالأفعال والأخلاق والأفكار، ويبغي أفلوطين في النهاية رد الجمال إلى علة أو سبب معقول وينتهي إلى نظرية أقرب إلى التصوف الذي يوحد بين حقيقة الوجود والخير والجمال والذي يصور شوق النفس الانسانية المستمر إلى الاتصال بهذه الحقيقة والتشبه بها.

2- وإذا كانت الافلاطونية الجديدة، امتداداً لأفلاطون، فإنها مع ذلك قد خلطت الجمال باللاهوت، بحيث لم يعد المجال يسمح للبحث في العبقرية المبدعة وهي مستقلة فلقد أرتبط

الجمال بالمبدأ الأوحد عند أفلوطين وهذا المبدأ الأوحد وهو خير بحت هو الذي تصـــدر عنـــه الصور المشعة، وبعبارة أخرى فإن الله هو مصدر الصور الفنية ومبدعها وهو يفيض بها على من ارتقت روحه من الفنانين، وطبقاً لنظرية الفيض أو الصدور الافلوطنية يكون الجمال المتحذ بالله هو أكمل وأسمى جمال، بينما تتناقص درجات الكمال والسمو كلما ابتعدنا عن الجمال الإلهي وبمقدار هذا الابتعاد، وعلى الفنان إذن أن يتخلص من روابط البدن، وأن يتطهر وأن يتســامى عن الجمال الجزئي، وان يصعد من علله ماراً بمحطات روحية تمثل الأقاليم الثلاثة، حتى يتحد بالله مبدأ الكون وسر عظمته ووحدته وجماله، هنالك يلهمه الله من ضيائه ومن جماله، أو يشهد الفنان الجمال العلوي الأبدي.

3- إن للجمال عند أفلوطين حقيقة علوية لها طبيعة نورانية متحدة بذات الإلـــه، وهـــذه الحقيقة تمتد في الأشياء إلى أن تظهر ظلالها التي تدركها بالحواس، فالجمـــال الـــذي تدركـــه بالحواس ليس هو جوهر الجمال، وإنما إدراك الجمال (تلك الحقيقة النورانية) لا يتأتى إلا بـــأداة من نفس الجوهر هي الروح، ولكن الروح ليست خالصة وإنما هي مرتبطة بالجسم (وهو معدن آخر معطل لعملها إلى حد كبير) مما يحول دون إدراكهما للجمال إدراكاً كافياً. وهي في ســـبيل هذا الإدراك في حاجة إلى رياضة تصفيها وتنقيها إلى أن تصبح في حالة مناسبة لإدراك ذلـــك الجمال، وأفلوطين نفسه يقول "يجب أن تصبح العين معادلة ومشابهة للشيء المرئي كما يمكـــن استخدامها في تأمله ولن ترى عين الشمس دون أن تصير متشابهة لها، ولن ترى نفس الجميـــل دون أن تكون جميلة"[54].

4- ولقد تركت الافلاطونية المحدثة بصماتها واضحة على فلاسفة العصـــر الوســـيط، وكانت فلسفة أفلوطين تحتل مكاناً بارزاً في التفكير الجمالي عند فلاسفة المســـيحية أو فلاســـفة الكنيسة بلفظ أدق، فهذا "أوغسطين" يذكر أن الجمال هو الوحدة أي الله، وأن قوانين الجمال والفن

كالتساوي والتشابه والانسجام ما هي إلا انعكاسات للحقيقة أو الكلمة أو الله، وهذا سانت بازيل (ST.BASIL) يمزج الفن واللاهوت ويتبنى الافلاطونية المحدثة، ويدافع عنهما في كتابات ظهرت تحت اسم مستعار هو ديونيسيوس (وكان للأخير أكبر الأثر في استطيقا العصور الوسطى، وتكفي نظرة واحدة في عناوين مؤلفات "بازيل" لكي نعرف أنه مزج الافلاطونية بالمسيحية، فعناوين كتبه هي "المراتب السماوية"، "المراتب الكهنوتية)، "الأسماء المقدسة"، وقد احتل الإله المسيحي مكان الخير الأسمى أو الفكرة (Idea) هكذا: الإله، الحكمة، الخيرية، الجمال العلوي، مصدر الأشياء الجميلة في الطبيعة، وهذه هي سلم لرؤية الخالق، وقد سبق أن رأينا أن أفلوطين هو الذي قال بمبدأ الفكرة التي هي أصل تصدر عنه أرواحنا في تأملها كما تصدر عنه الأشياء الجميلة المتأملة، فأثر أفلوطين هنا واضح كل الوضوح، وكل الذي صنعته الفلسفة المسيحية – لأنها كانت فلسفة لاهوتية أولاً وقبل كل شيء – هو إنما استبدلت الإله بالفكرة الافلوطينية، ومن ثم فقد اتصلت الجمالية بالمسائل الاعتقادية، وتوجهت كل الأبحاث فيها إلى اثبات فنية الإله القدير كما تتمثل في كونه البديع.

وهكذا كانت فلسفة أفلوطين في ميدان الجمال – كما كانت في سائر الميادين تمثل الجسر الذي انتقلت عليه الحضارة من طريقة التفكير اليونانية إلى طريقة التفكير اللاهوتية في العصر الوسيط، وتمثل نقطة النهائية بالنسبة إلى منهج اليونانين العقلي في حل مشكلات الفن والفكر والحياة.

المصادر والمراجع:

(1) فيليب حتى: خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرف الأدنى (الجزء الأول) الدار المتحدة للنشر – بيروت – لبنان – ط، 1975، ص193.

(2) المرجع السابق، ص165 وما بعدها.

(3) فرفور يوس، أي لابس الارجوان (234–310يوم) ولد في فينيقيا (لبنان) حيث أمضى طفولته وتعلم، ثم ذهب إلى أثينا ومنها إلى روما سنة 263 حيث تتلمذ على أفلوطين، ألف كتباً كثيرة منها "ضد المسيحين"، "ايساغوجي" وهو شرح المنطق أرسطو، فضلاً عن التاسوعات التي نقل فيها تعاليم معلمة أفلوطين، هو فيلسوف كبير لم يدرس مفصلاً بعد.

(4) يوسف كرم: تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص287.

(5) ماجد فخري: تاريخ الفلسفة اليونانية، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط1، 1991، ص192.

(6) المرجع السابق، ص190.

(*) انظر: بحثنا المنشور بمجلة الجامعة الالكترونية، أفلاطون والنقد الفني، العدد الثالث عشر، سنة 2011، ص 195–222.

(7) المرجع السابق، ص191.

(8) عبدالرحمن بدوي: خريف الفكر اليوناني، وكالة المطبوعات – الكويت، دار القلم بيروت – لبنان، ط5، 1979، ص121–122.

(9) Plotin, Enn, 1, 6, 1.
(10) Plotin, Enn, 1, 6, 1.
(11) Plotin, Enn, 2,9,16,17.
(12) Plotin, Enn, 1, 6, 3.
(13). Plotin, Enn, 6.7.22.
(14) Plotin, Ennead : 1.6.1
(15) Plotin, Enead, 1.6.2.

(16) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال، مرجع سبق ذكره، ص105.

(17) عبدالرحمن بدوي: أفلوطين عند العرب، الكويت، 1977، ط3، ص56–64.

(18) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال (أعلامها ومذاهبها، مرجع سبق ذكره، ص106.

(19) Encyclopaedia of religion z Ethics: 2nd.impr: vol. 2.p .445.

(20) Corr: TT, E.F: Philosophies OF Beauty.(oxford, carendon press, 1931) pp.47-48.

(21) Plotin, Enn: 3,2,3.
(22) Plotin, Enn: 6,6,1.
(23) Plotin, Enn: 1,6,7.
(24) Plotin, Enn: 2, 9 , 17.
(25) Plotin, Enn: 5,2,1.
(26) Plotin, Enn: 1, 6, 1.
(27) Plotin, Enn: 6,7,29,30.
(28) عبدالغفافر مكاوي: مدرسة الحكمة، دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة (د.ت) ص55.
(29) Plotin, Enn: 6,7,33.
(30) Plotin, Enn:1, 6, 9.
(31) Plotin, Enn:1, 6, 7.
(32) Plotin, Enn:6, 7, 32.
(33) Plotin, Enn: 1, 6, 9.
(34) Plotin, Enn: 5, 5, 12.
(35) Plotin, Enn: 6, 9, 4.
(36) عز الدين اسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، مرجع سبق ذكره، ص4.
(37) Plotin, Enn: 1.6.1.
(38) عز الدين اسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، مرجع سبق ذكره، ص42.
(39) أميرة حلمي مظر: فلسفة الجمال (أعلامها ومذاهبها) دار قباء للطباعة والنشر (القـــاهرة) 1998، ص108-109.
(40) عبدالرحمن بدوي: أفلوطين عند العرب، الكويت 1977، ط3، ص56-64.
(41) أميرة حلمي مطر: فلسفة الجمال (مذاهبها وأعلامها)، مرجع سبق ذكره، ص107.
(42) أفلوطين: آثالوجيا، تحقيق عبدالرحمن بدوي، نشر وكالة المطبوعات، الكويـــت، 1977، ط3، ص56 فما بعد.
(43) Plotin, Enn: 6, 7 31.
(44) J. Travillard : La Procession plotiniome – p.v.f – 1955, p 155.
(45) Plotin, Enn: 5, 8, 11.
(46) Plotin, Enn:, 1, 6, 5.
(47) Plotin, Enn:1,6,6.

(48) فيت (جروم): أفلاطون، بيروت 1970، ص184-185.

(49) Auand . k. comaraswamy: christion and oriental philoshy of Art Dover bpublication the New york, 1943. p67.

(50) Ibid, p.67.

(51) بورتنوي (جيوليوس) : الفيلسوف وفن الموسيقى، ترجمة فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 69.

(52) غسان خالد: أفلوطين (رائد الوحدانية) منشورات عويدات – بيروت – لبنان – ط1، 1983، ص230.

(53) حسين علي: فلسفة الفن (رؤية جديدة) الدار المصرية – السعودية للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2005، ص142.

(54) Charles Bernard: Esthetique et eqitique: paris, 1946, p.33.